

نظريات القراءة و تلقي النص الأدبي

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة إشكالية القراءة و علاقتها بالنص المقروء، وتحاول الإجابة عن بعض الإشكاليات التي تطرحها النصوص الأدبية وتمردها على أنواع النقد التي لا تحترم منطقها الداخلي و منظومتها المعرفية و مقولاتها البلاغية و التركيبية. كما يكشف البحث عن عيوب القراءة الاستعمالية التوظيفية التي تعطل وظائف النص وتلغي خصائصه الرمزية و الجمالية. وتلخص الدراسة إلى تحديد بعض ملامح أنظمة القراءة وكيفية تعالقتها مع النصوص بهدف الوصول إلى قراءة مقبولة ومنتجة.

د. حسين خمري
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

1 - إن تغير المشهد النقدي في العقدين الأخيرين قد أفرز مجموعة من النظريات والمناهج التي تحاول تخلص النص من النظرة الوظيفية والإستعمالية المبتذلة لتعيد إليه حضوره وسلطته بعد أن غيبته الدراسات المضمونية والسياقية. وهذا التغير جاء كرد فعل على تصلب بعض المناهج ورادكاليته وادعائها لامتلاك الحقيقة وقول الكلمة الفصل حول النص (1). إن هذه الخطابات قد تميزت بالانغلاق والتعالي على النصوص الأدبية وتهميشها وإزاحتها عن مراكزها لاستبدالها بمرجعياتها وسياقاتها الخارجية. وقد اتسمت نظرتهم إلى النص باعتباره منتجاً منتهياً وقابلاً للاستهلاك أو الامتلاك.

1.1 - إن الانفجار الحاصل على مستوى أجهزة الإعلام قد أغرق الإنسان المعاصر في سيل من الرموز والعلامات التي صارت تحاصره وتقض مضجعه وتلح عليه، بل تفرض ذلك، ليقوم بفك رموزها والتعرف على دلالتها (2). إن الصور والأيقونات والأنظمة الرمزية المختلفة وآليات التخيل وأدوات الترميز صارت تشكل

Résumé

La théorie de la lecture propose un certain nombre de procédures pour appréhender les différents niveaux des textes.

Elle donne accès également à leurs univers et permet de reconnaître les différentes modalités de son fonctionnement pour engendrer son sens.

Cette recherche se veut, au préalable, une étude des interactions texte-lecture et s'inscrit dans une perspective critique.

الواقع وتحوله وتعيد صياغته.

هذا الوضع الجديد يحتم على الباحثين النظر إلى الأدب كعلامة أو كمنظومة سيميائية ونسق من العلامات التي تتبادل الأدوار فيما بينها وليس كمجموعة من الدلالات، لأن دلالة النص - وفق هذا المنظور - ليست نهائية ولا هي معطى ما - قبلها à-priori، بل هي إنتاجية (3) وبناء وتحول مستمر. ولم يتأت هذا التوجه إلا في سياق المنهج السيميائي الذي يرى أن كل الممارسات الإنسانية هي ممارسات رمزية بالدرجة الأولى (4).

2.1- إن الأدوات المفهومية التي تم إنجازها في حقل السيميائيات قد وفرت للباحثين في نظرية القراءة والاستقبال مجموعة من المفاهيم الإجرائية التي ساعدتهم على بلورة منهجهم وتعاملهم من النصوص الأدبية وفق منظور متميز. ومن هنا يبدو لنا أن نظرية القراءة لم تقطع صلتها بالسيميائيات، كما يروج لذلك الذين يجهلون الأسس المعرفية والأصول الفلسفية لهذه النظرية (5)، ولكن هناك اختلاف طفيف في المرجعيات المنهجية والمرتكزات الفلسفية.

3.1- ومن هنا يمكن اعتبار القراءة كمفهوم مفصلي يسهل الانتقال من النص - موضوع الدرس - عند البنويين والسيميائيين وظروف إنتاج النص (في الدراسات السياقية) إلى الاهتمام بالقارئ كطرف في إضفاء المشروعية على النص. إن القراءة ليست عنصرا خارج - نصيا extratextuel، أو زخرفا ملصقا على هيكل النص، ولكنها مكتوبة داخله (6) وتنتشر في ثناياه عن طريق إشارات (خصائص جنسية) أو علامات (قرائن) أو إستراتيجيات خطابية (الجهاز البلاغي - الأسلوبي) التي تحيل القارئ على الدلالات "الأكيدة" والمحتملة التي يقترحها النص (7). من هنا يتوجب التعرف على نظام أو أنظمة القراءة.

ولا يتأتى هذا إلا من خلال مواجهة النص وبناءاته الرمزية ونظمه السيميائية، لأن طبيعة النص الأدبي طبيعة تخيلية (8) أي ليست له مرجعية خارجية تتحكم فيه وتفرض عليه قراءة معينة ومعنى واحدا لا يتجاوزه.

2- إن مفهوم التخييل هو البعد النقدي الذي أضافته البلاغة العربية إلى عناصر "الشعرية" (علم الشعر - نقد الشعر) وتحديدا لوظيفتها (9). ويمكن اعتبار هذا المصطلح مفهوما إجرائيا يكتسي طابعا تجريديا يعبر عن وعي نقدي متقدم متجاوزا بذلك المفهوم الأرسطي للتطهير ذي الحمولة النفسية والإيحاءات الأخلاقية (10). وما يفتح النص على القراءات العديدة والمختلفة هو العلامات والإشارات التي توجه إلى القارئ وتطالبه بفك شفراته واستثمارها لقراءة النص وتأويله (11).

1.2- إن كل نص يحتوي - نظريا - على عالمين: تخييل وواقع (12).

إن التخيل هو الصور والمجازات والاستعارات والدلالات الحافة Connotations وكل القرائن التي تهدف إلى تحريك خيال القارئ أو إثارة أحاسيسه. أما العالم فهو مرجعيات النص الخارجية، وعالم الأفعال والأحداث والأقوال. وفي سياق نظرية التلقي فإن الواقع هو مجموع قسّمات النص ومضامينه، أما التخيل فهو أفق الانتظار (13) وهو مصطلح مركزي عند أصحاب هذه المدرسة والذي يعرفه ولفغانغ إيزر بأنه مجموع التوجهات التي يبدئها النص إزاء قارئ معين في لحظة محددة، أي أن النص هو الذي يقترح قراءته على المتلقي. في حين يرى يابوس أن الواقعي يمكن اعتباره أفقا للتخيلي (المسافة الجمالية)، ومن هنا ينتهي إلى القول بأن كل قراءة هي في الأساس قراءة تناصية Intertextuelle (14).

2.2- وهذا يعني أن القارئ لا يواجه النص العيني معزولا ووحيدا، بل يواجهه من خلال الأنظمة النصية المترسبة في لا وعيه ومن خلال ذكرياته القرائية (15)، وهو ما يفيد أنني عندما أقدم على قراءة رواية واسيني "سيدة المقام" مثلا، فأنا أقرأها من خلال مقولات الجنس الأدبي، أي الرواية كسردي تخيلي وصياغة للأفعال والأقوال التي تنتظم بنيويا بكيفية مخصوصة، وانطلاقا من هذا الموقف أقوم بصياغة أفق انتظار يشمل كل تنوعات الجنس الروائي (16).

1.2.2- ثم أواجه هذه الرواية من خلال النصوص الروائية العربية، أي من خلال قراءتي لوطار و بوجدره ونجيب محفوظ وحنامينا وعبد الرحمن منيف وأحمد المديني وهاني الراهب. وفي هذه المرحلة أقوم بتشبيد أفق انتظار جديد (17).

2.2.2- وأخيرا أقوم بقراءة هذه الرواية من خلال مجموع الروايات التي كتبها واسيني لصياغة أفق انتظار جديد، وأبأشر البحث عن خصوصية "سيدة المقام" مقارنة مع روايات الكاتب الأخرى.

3.2.2- إن هذه الأنظمة النصية المختلفة التي تؤسس القراءات التناصية هي التي يقوم ببناء أفق الانتظار، وفي هذه اللحظة يتدخل عنصر حاسم هو نسق المعاني الذي يحدد بصفة نهائية / مؤقتة نظام القراءة ويحسم القضية إلى حين. إن صراع الأنظمة القرائية يتحدد بنسق المعاني والذي يحدد في الأخير دلالة النص وفقا لضرورات منهجية معينة.

3.2- إن تغيير المعايير والأنماط التي تتجلى من خلال النص يؤدي إلى تغيير توقعات القارئ وأفق انتظاره وهو الذي ينتج مجموع القراءات ويعمل على ترسيبها. ومن هنا يتحدد شكل القراءة التي تتميز عن غيرها من القراءات لأن لكل قراءة مقولاتها الخاصة ونظامها المرجعي وشفراتها المميزة. من خلال ذلك تنبني الذات القارئة وتتمفصل داخل النص المقروء، وعبر مسار النص يبني الموضوع التخيلي ويتشكل باستمرار تاركا وراءه الأفكار المسبقة والمعاني الجاهزة والمواقف المكررة.

4.2- إن تحوّل أفق الانتظار باستمرار بالنسبة للنص الواحد يعني أن القراءة نشطة وأنها تجاوزت نسق المعاني المطروحة والدلالات المعلنة عن حضورها إلى إنتاج

معرفة بالنص. وهذا التحول إذا مارسه القارئ عن وعي فإنه يعتبر دليلاً على المشروع التاريخية للنص وتميزاً عن القراء التاريخيين لنص محدد عبر مراحل تاريخية متباينة (18).

1.4.2- إن القراءة المنتجة والنشطة هي القراءة التي تؤسس تاريخيتها historicité ولا تذوب في القراءات السابقة عليها أو المتزامنة معها. إن تاريخية القراءة لا تعني تاريخ إنجازها أو الظروف المحيطة بهذه العملية ولكنها تعني خصوصيات هذه القراءة أي مجموع الإضافات أو أنواع الحذف أو التحويلات مقارنة مع القراءات السابقة التي تمت بالنسبة للنص العيني الواحد.

2.4.2- والتاريخية بهذا المفهوم، هي مجموع العلامات والرموز والإحالات التي تحيل إلى عصر معين ونظام معرفي محدد ومنهج إجرائي مخصوص. إن المفاهيم مثل: أفق الانتظار، التلقي، القارئ (بأنواعه)، الأثر الجمالي، فراغات النص، التحيين، التجسيد، الموضوع الجمالي، التأويل، المسافة الجمالية... هذه المفاهيم تعني أن القراءة قد تمت بعد منتصف ستينات هذا القرن ونجزم أنها لم تنجز قبل هذه الفترة بتاتا.

5.2- قد تنطوي دراسة ما على مفهوم أو أكثر ولكنها مع ذلك لا تتمظهر في شكل نسق مفهومي أو نظام إجرائي. ولا يرتبط هذا المفهوم مع غيره من المفاهيم بأواصر بنيوية ووظيفية عندئذ لا يمكن اعتمادها كمحددات تاريخية للقراءة، لأن مفهوم "أفق الانتظار" قد ينوب عن مفهوم "التوقعات" أو "انقلاب الخط" بالمفهوم الأرسطي. كما أن التأويل ذاته قد يتداخل مع الطريقة المدرسية في شرح النصوص وإذا لم يكن هناك أي رابطة وظيفية بين المفاهيم فإن تاريخية القراءة تنتفي وتتمحي آثارها وخصوصيتها.

3- إن مفهوم إيزر للقراءة وملتء الفراغات يجعل النص هيكلًا أو ترسمية يقوم القارئ بملئها وفق الثقافة التي يوفرها له عصره أو وفق ميوله ورغباته، وهذا يعني - حسب أنغاردن، وبعد إيزر - أن النص هيكل متجمد (19). ومن هنا يعمل القارئ على تحويل طبيعة النص باستمرار وتجديده مع كل ممارسة قرائية. والطرح الصائب هو أن "المعنى النقدي" ينسب إلى "قارئ" معين مرتبط بظروفه وملابساته ومقتضيات المنهج الذي توخاه الناقد، في حين أن "معنى النص" متجدد ومتحول مع كل قراءة جديدة.

1.3- وهذه الفكرة تتطابق مع موقف بول فاليري الذي يقول: "لا يوجد معنى حقيقي للنص"، لأن المعنى الأدنى يتهرب باستمرار ويتعالى على كل نقد سخي أو غير جدي، لأن "المحك الأساسي لقيمة النص هو أنه متحرك، ليس له "معنى" مسبق، ثابت. فمعنى النص الإبداعي يتجدد مع كل قراءة مع كل قارئ، بشكل جديد غير منتظر. إن للنص دلالات بعدد قرائه" (20).

2.3- ولهذا يتعين على القارئ أن يجدد أو يخترع سياقات جديدة للنص التخيلي ليتجاوز الهالة الأسطورية للنص وكثافته التاريخية باتجاه كشوفات نقدية جديدة تماما. وقد تنبه

الفرزدق لتعدد قراءات النص الواحد وتنوعها ودعا إلى عدم التقيد بنموذج واعتباره الإمكانية الوحيدة عندما أجاب ابن الأعرابي: "علينا أن نقول وعلينا أن نؤولوا".

1.2- إن النص الذي يقصده كل من الفرزدق وبول فاليري، هو النص الإجمالي، النص المتعدد، والنص "المنجم" Etoilé كما يقول بارت "الذي يشبهه، في كتلتها، السماء، مسطح وعميق في نفس الوقت، أملس، بدون ضفاف ولا معالم" (21). إن "المنجم"، هنا، لا يقصد به التنجيم كما هو متداول في بيئة الأصوليين، أي ربط نزول النص القرآني بمسبباته (أسباب النزول)، ولكنه يرسل إشعاعات وإشارات ضوئية تنير سبيل القارئ.

2.2.3- إن دراستنا لنظم القراءة قد كشفت لنا عن آليات القراءة وميكانيزمات التأويل والحدود المنهجية بين الفهم والتأويل (22) فميدان التأويل هو قوانين الخطاب وبنية التركيب ومجاز المدلول، أما ميدان الفهم فهو الدلالة والمعنى. وهذه القضايا كانت قد حسمت عند الأصوليين الذين ميزوا بين ثلاث عمليات قرآنية هي الشرح والتفسير والتأويل حيث اعتبروا أن ميدان الأول هو الألفاظ وميدان الثاني هو المعاني أما الثالث فمجاله البحث في الدلالات الخفية وغير المعلن عنها. هذا لا يعني انفصال هذه المفاهيم الثلاثة عن بعضها البعض. وتحدد طبيعة القراءة بغلبة أحدها على العمليتين الباقيتين، لأن كل واحد من هذه المفاهيم يخضع لميكانيزمات اللغة والتواصل وعلاقة الذات القارئة باللغة والثقافة ذلك أن المجال التداولي للنص يساعد على التشريع للقراءة ويساهم في إضفاء المشروعية عليها.

4- يتجلى النشاط القرآني عن "قدامر" وياوس، من خلال جدلية السؤال والجواب "والعلاقة بين النص والقارئ تخضع لمنطق السؤال والجواب" (23). فالنص يلقي على القارئ أسئلة ويحاول هذا الأخير انطلاقاً من معرفة معينة أن يجيب عنها. إن الإجابة تختلف من قارئ إلى قارئ، وهذا حسب كثافة النص وعمقه ووفق طبيعة ثقافة القارئ ومنهجه، ادواته المعرفية لأن "دور قارئ النص يقبل تحقيقات تاريخية وفردية مختلفة وذلك على ضوء الاستعدادات الوجودية وكذلك على ضوء الفهم الأولي الذي يحمله القارئ الفردي للقراءة" (24). لا يجب أن نتصور فضاء السؤال / الجواب في شكل استنطاق أو استجواب لأن القارئ هو الذي يقوم بصياغة الأسئلة وتوليدها من رحم النص ذاته ونوع الإجابة هو الذي يحدد طبيعة القراءة.

1.4- إن الأسئلة الساذجة أو البديهية لا تنتج إلا قراءات ممسوحة المعالم وباهتة الملامح، وكلما كانت الأسئلة جذرية وجدية كلما كانت القراءة جادة ومثيرة للإهتمام.

1.1.4- إن توليد الأسئلة من رحم النص يكشف عن مقاومة هذا الأخير أو استسلامه وذلك حسب طبيعته "الأسئلة الحقيقية، أو الممكنة، السؤال الواحد الذي يتهدد له أن يفلت من زحام التكرار والرتابة هو ما يؤهل النص والفكر والواقع لفتوته ونضجه في قلب الصدام المتصل الذي تعيشه الأشياء والكلمات. إن ثقافة السؤال، عندئذ، ليست بنحاً أو

تأجيلاً للمواجهة بل هي رغبة في تعميق ما يخال دائماً أنه بديهي " (25). وهذه الأسئلة لا تتوقف عند المظهر الخارجي أو النسق اللغوي بل تبحث في مفاصل النص وشقوقه وتتساءل عن انكساراته وتعرجاته؛ ذلك أن النص المنسجم بنيويًا ودلاليًا لا يثير إشكالات حقيقية أو محرجة، لأنه يعرض معانيه واضحة و يجيب عن الإشكاليات دون العودة إلى القارئ.

2.1.4- من هنا يبدو أن الأسئلة هي تعبير عن وعي متميز بيديه القارئ تجاه النص. "إن جدلية السؤال / الجواب، في سياق نظرية القراءة، تعكس جدلية أخرى هي جدلية الذات والموضوع، وإذا أختل الانسجام بين هاتين الثنائيتين فإن القراءة تفقد مصداقيتها، لأن عملية التلقي باتت لا تخرج عن كيان الكتابة، وممارسات النقد الأدبي الجديد المختلفة" (26).

3.1.4- إن بعض النصوص الأدبية تبدي مقاومة شديدة بالنسبة للقارئ وهذه النصوص تتميز بطابع رادكالي تجعل من القراءة نوعاً من الممر الإجباري، وهذه النصوص غالباً ما تظل بدون قراء لأنها تتسم بنوع من الاستبداد و الدوغماتية لأنها تطمح أن تؤسس لنفسها سلطة خارج سلطة الخطاب، في الوقت الذي تتأسس فيه سلطة الخطاب من خلال البلاغة والوسائل التعبيرية والعلامات الجمالية. النص ليس نظاماً معرفياً بل يساعد على بلورة النظام المعرفي، ولأن المنظومات المعرفية هي أنظمة معيارية فإنه يتعين تجاوزها إذا أردنا لقراءتنا أن يكون لها معنى لأن "فعل القراءة هو فعل ينطلق من الذات، في جميع الأحوال، والنص يوجه دائماً قارئه بهدف بناء معناه وبذلك تبرز الذاتية، ولكن بمجرد ما ينبنى ذلك المعنى فإنه يثير ردود فعل مختلفة مما يعني أن المستوى التذواتي هو الذي يحدد ما هو موضوعي، ما هو قابل للبرهنة والتأكيد" (27).

2.4- تتحدد القراءة النشطة بالتحريك الرمزي للنص، أي التعامل معه باعتباره منظومة سيميائية وليس كنسق من الأفكار ومركبا syntagme من الدلالات، أي من خلال بناء الأفق وتعديله وتتأسس عملية الفهم والإفهام وفتح حوار مع النص وتحديد شروط المعرفة وتجاوزها وإلغاء المسافات الزمنية، "لأن القراءة هي مستقبل النص" (28) وبهذا يتم إنتاج متخيل النص.

3.4- إن القراءة الفعلية (فعل القراءة) وحدها هي التي تنتج متخيل النص وذلك إذا استطاع النص أن يتصف بالأدبي عندما يحفر قراءته الخاصة" (29) ويقوم بتحريك خيالاته ومجازاته واستعاراته وإعادة صياغة رموزه، فيصير النص هو الدال والقراءة هي المدلول. و المدلول هنا لا يتوقف عند دلالة واحدة بل يطمح إلى الدخول في دورة لا منتهية من التأديلات.

5- وتتسم القراءة بالعنف إذا كانت قراءة استعمالية، أي توظف النص لإثبات قضية أو نفيها (30)، وعندما يقوم القارئ بفرض تصورات ومفاهيمه على النص ويحطم بذلك

منطقه النوعي فيعطل وظائفه ويجمد اشتغاله فيجد مفهوم القارئ نفسه مناقضا لمقاصد الكاتب. لأنه من يقرأ النص انطلاقا من آلياته و خصوصياته من خلال مقولات غريبة من نظامه وآليات اشتغاله.

1.5-1 إن عنف القراءة بهذا المفهوم، يمكن عده "انحرافا" بالمفهوم الأخلاقي لأن العنف غالبا ما يكون عبارة عن ربط متخيل النص بمرجعياته ربطا آليا دون البحث في خصوصياته ودلالاته الإيحائية، وبالتالي فإن القارئ في هذه الحالة لا يرى في النص إلا ما يهيمه. إن رموز النص ليست مداليل ولكنها دلالات وموضوعات خيالية، و مرجعيتها ليست واقعية ولكنها احتمالية.

إن القراءة لا تتوقف عند حدود التلقي السلبي بل ترتفع إلى مستوى إنتاج معرفة بالنص والتمييز بين المعقول والمدلول للوصول إلى صياغة موقف فكري منهجي من النص انطلاقا من النظام البلاغي والنحوي الذي يؤسسه. "إن قيمة العنف تستطيع، بالفعل أن تقدم لنا إمكانية إنجاز مدخل مغاير لقراءة الكتابة العربية الحديثة، من جهة، والبحث عن بنية ونشأة وطوية الأجناس الأدبية الحديثة عند العرب، من جهة ثانية" (31).

1.1.5-1 والقراءة تتنوع بتنوع حواملها ووسائطها *médias*، وكذا بلغاتها المتباينة والمختلفة. فقراءتنا للنص بعينه على صفحات جريدة أو في مجلة أو كتاب أو على شكل مخطوط. فقراءتنا له في جريدة تعطينا الانطباع بأنه حادث عابر وقيمه ترتبط بعمر اليومية، أما على صفحات مجلة فإن هذا يرتبط، في الغالب، بسياسة صدور المجلة، شهرية أو فصلية أو حولية، وكلما طالبت المدة كلما كان للنص قيمة، لأن عودتنا إليه تثريه بدلالات جديدة وتتيح قراءات متباينة. فإعادة القراءة *relecture* هي إعادة بعث لقيم مبنوثة في النص والتي يبحث عنها الفرد" (32).

2.1.5-2 وإذا قرأنا نفس النص في كتاب فهذا يضيف عليه شرعية تاريخية و يدخله في دائرة اللا زمنية *atemporels*، وفي حالة قراءته في شكل مخطوط، فإن القارئ يحس بنوع من التملك له، وأنه أصل من أصوله ويساهم في تبليغه. وهنا ترتبط قيمته المعرفية والجمالية بلذة القراءة و متعة التلقي.

3.1.5-3 إن التشكيل البلاستيكي للنص يثير علاقة المرئي بالمقروء *visible / lisible* ويقوم ببرمجة القارئ ويؤسس أفق انتظاره حتى قبل بداية عملية القراءة. فالقارئ يجد نفسه مبرمجا (داخل اللعبة) قبل أن يتعرف على شكل النص ويحدد نظامه ومقولاته الجمالية. فالقارئ يمكنه - وبكل سهولة التعرف على القصيدة الكلاسيكية والقصيدة الحرة والسرد القصصي والمسرحية بمجرد أن يلامس بصره الورق. في هذه اللحظة بالذات يتشكل أفق الانتظار، وهذه البرمجة هي برمجة خارجية، "لأن القراءة باعتبارها تشكيلا للمعنى - انطلاقا من النص، وبعبارة أخرى حسب قواعد الكتابة التي يتيحها هذا الأخير" (33).

2.5- وقد تبدأ البرمجة الخارجية - حتى قبل البدء في القراءة، وينبغي أفق الانتظار منذ العنوان سواء من خلال صياغته النحوية والبلاغية، لأن العنوان الأدبي يتسم غالباً ببلاغة فضاضة، عكس العنوان العلمي الذي يلتزم الدقة في مطابقة الدال للمدلول. كما أن العنوان يلتصق بمضمون النص، وتضاف إليه بيانات أخرى تقصي أفق الانتظار الأول وتؤسس أفقا جديداً. قد يجد القارئ مثلاً نصاً بعنوان طبقات الأرض أو هندسة الفضاء فهو يتأهب لقراءة معلومات جيولوجية أو أفكار هندسية، ثم قد يجد تحت العنوان عنواناً فرعياً يحدد جنس الأدب مثل رواية أو ديوان شعر، عند ذلك يتغير تصرف القارئ إزاء النص تماماً و يعيد تشييد أفق الانتظار مجدداً.

1.2.5- البرمجة الخارجية بهذا المفهوم هي ميثاق القراءة *pacte de lecture* لأن أية قراءة - مهما كان نظامها، ومهما كانت طبيعتها ليست عملاً بريئاً، بل هي تصدر عن قصدية وإرادة في الفهم. لماذا هذا النص بالذات دون غيره؟ هل القارئ هو الذي يختار النص أم أن النص هو الذي يختار القارئ.

2.2.5- أعتقد أن النص هو الذي يختار القارئ وليس العكس، إلا في حالة القراءة الإستعمالية والتوظيفية، والنص هو الذي يفرز قراءه ونقاده. النص الذي يختارنا هو الذي يجعلنا نعود إليه باستمرار، وهو الذي يبقى فيه شيء من السر، كل مرة ننتهي من فك رموزه والتعرف على معانيه واستخراج دلالاته. نحس أننا عدنا إلى نقطة الانطلاق.

3.5- النوع الثاني من البرمجة هو البرمجة الداخلية والتي تتم من خلال الإستراتيجيات الخطابية والمناورات البلاغية والأقنعة والاستعارات والرموز والمنظومات السيميائية والأشكال اللغوية الغريبة، لأن المظهر اللغوي يشتغل كقناع لنص الكاتب وكمنظومة سيميائية لنص القارئ، وتقوم القراءة بتفكيك وفهم استراتيجيات النص". إن الإستراتيجيات تقوم إذن برسم معالم بناء موضوع النص ومعناه وكذا كل ما يتصل بشروط التواصل" (34). وبهذا يتأسس فعل القراءة من خلال استراتيجيتين متقابلتين: إستراتيجية الكاتب وإستراتيجية القارئ.

4.5- إن القراءة منكبته في النص ذاته (35) وتشكل جزءاً أساسياً منه ومكوناً من مكوناته، بمعنى أن النص يقترح قراءة معينة ومحددة عن طريق استراتيجياته الخطابية والبلاغية، وأي نص كان ومهما كان جنسه الأدبي فإنه يحتوي في داخله على طريقة استعماله مثلما نجد ذلك في علبة الدواء، ولكن القارئ المتميز هو الذي تستطيع تجاوز استراتيجيات الكاتب لينتج استراتيجياته الخاصة وإنجاز قواعد جدية للعب والتي تتجلى "في كون اللاعب تقبل التقيد بقواعد ثابتة" (36).

6- إن القراءة الأخرى هي القراءة التي تحاول جاهدة التفرد و التميز عن القراءات السابقة و تناسخها، لأن هذه العملية حدث لا تتكرر و لا تقبل إعادة الإنتاج. قال هيرا قليطس " لا يستحم المرء في النهر مرتين " هذه المقولة تنطبق أيضاً على القراءة. و حتى إذا كان القارئ يتوهم أنه يعيد قراءة نص ما، فهو في الواقع لا يقرأ النص

المخصوص إلا مرة واحدة في حياته، ماعداه فهو إعادة قراءة relecture ، و التي هي عبارة عن إضافات أو حذف أو تحويل، و ما غيرها من العمليات، إنها بكلمة واحدة تحرير لمسار القراءة الأولى و التي تتخذ منها القراءات اللاحقة خلفية نصية. (37)

1.6- إن القراءة الأخرى قراءة منتجة وخصبة، وهي تتعالى على كل نقد مجاني والنظرة الإستعمالية والوظيفية وتبعد النص عن دواليب الاستهلاك التجاري. إن عنف القراءة يصدمننا كلما قرأنا تحليلاً لخطبة الحجاج بن يوسف الثقفي التي ألقاها في أهل العراق التي قرأت قراءة سياسية إيديولوجية في الكثير من الأحيان وفي أحيان أخرى قراءة نفسية ، "إنها إلغاء للنص: تشوّهه وتحجبه"، (38) أما القراءة التي تروم بناء متخيل النص والبحث عن المسكوت عنه فإنها تنظر إلى هذا النص / الخطبة من منظور مغاير.

2.6- الخطبة تبدأ بمركبين وصفيين syntagmes constatifs. ثم تليها مجموعة من الأفعال الإنجازية performatifs في صيغة شرطية. يبدأ المركبان الأوليان بصيغة النداء ثم التكرار. إن لهجة العنف التي واجه بها الحجاج بن يوسف مخاطبيه تنمحي لتفسح المجال للهجة عاطفية ومتوترة تضج بالكنايات والجناس والطباق وبيدأ التمشهد البلاغي في الاستعراض ليبدو الحجاج في لباس رجل البلاغة وينمحي الرجل السياسي وبهذا التحول يهبط مشهد العنف إلى خطاب رومنسي عاطفي يثير الشفقة حيث "تستعرض الذات، القائلة نفسها، وفي نفس الوقت تكشف عن فراغها العاطفي، متواطئة بشكل بهلواني، لغة صرف" (39).

إن قراءة متخيل نص هذه الخطبة تكشف الكثير من القيم التي سكت عنها عنف القراءة الإستعمالية / الوظيفية في سياقها السياسي والإيديولوجي، "لأن اللغة بالنسبة للخطيب Orateur، كما بالنسبة للسامع، هي التي تتكلم من خلال الافتتان / الولوج، المتكلمة تنبني من طرف السامع" (40) و يساهم في إعادة كتابة النص و إنتاجه.

3.6- نلاحظ، في نفس السياق أن تناسخ القراءات بالنسبة لمرثية الخنساء لأخيها صخر تعيد نفس الأفكار والخطابات وتختزل نص الخنساء في غرض الرثاء وعلاقتها بأخيها، لأن القارئ المتسرع لا يقرأ النص من حيث هو نص قائم بذاته وفي استقلال عنه: نص - شكل، له لغته وعلاقتها وأبعادها. "إنه بالأحرى لا يقرؤه، وإنما يبحث فيه عما يؤكد أو ينفي ما "يضمره" في عقله ونفسه" (41) إن القرائن اللغوية والدلائل المعنوية تظهر أن الشاعرة ترثي نفسها عبر أخيها وذلك عندما زحزحته من بؤرة النص وقامت بتحويله من ذات إلى موضوع، فهي تكثر من القرائن التي تحيل إلى الذات القائلة وتعمل على نفي الموضوع من فضاء النص أو على الأقل تغييره مثلما نفاه الموت من الحياة وغيبته عن الأنظار. إن مرثية الذات تأخذ أبعاداً مأساوية حادة عندما يتحول مدح / رثاء الشاعرة لأخيها إلى إعجاب مفرط يضفي على علاقتها بأخيها نوعاً من الغموض المحير.

7- إن نظرية القراءة كنظرية جمالية علمية ومشروع نقدي واعد مطالبة بتخليص الكثير من النصوص العربية من النظرة الإستعمالية والوظيفية والقراءات الإيديولوجية والسياسية أو طرائق الاختزال وتناسخ القراءات، ولا يتأتى هذا إلا من خلال معرفة معمقة بآليات المنهج وأدواته وإجراءاته وطرائق تعامله مع النصوص دون إهمال خصوصية النص العربي ووسائله التعبيرية ونظمه البيانية ورؤيته للعالم.

هوامش

- [1]- U.ECO: Notes sur la sémiotique de la réception. pp.5 – 6.
 [2]- A. Viala et P. Schsidh : Faire - Lire p.5.
 [3]- J. Kristiva: Recherches pour une sémanalyse, p.52.
 [4]- دالورد إيش: التلقي الأدبي. ت محمد براءة ص 26 - دراسات.
 [5]- U.ECO: Les limites de l'interprétation, pp. 24 – 25.
 [6]- M. Charles: Rhétorique de la lecture, p.9.
 [7]- F. Rutter: Sur les notions de texte et de lecture, p.83.
 [8]- U.ECO: Les limites de l'interprétation, p.213.
 [9]- جابر عصفور: مفهوم الشعر ص 155.
 [10]- P. Ricoeur: Entre herméneutique et sémiotique, p11.
 [11]- F. Rutter: Sur les notions de texte et de lecture, pp.72 - 73
 [12]- M. Marghescou: le concept de littéralité, p.3.
 [13]- W. Iser: L'acte de lecture, p.8.
 [14]- J. Ricardou: Pour une lecture rétrospective, p.57.
 [15]- جان ستاروبنسكي: نحو جمالية للتلقي. ت/محمد العمري ص 42.
 [16]- F. Ruten: Sur les notions de texte et de lecture, p.83.
 [17]- إرود إيش: التلقي الأدبي. ت/محمد برادة. ص 16.
 [18]- جان ستاروبنسكي: نحو جمالية للتلقي. ت/محمد العمري. ص 46.
 [19]- U.ECO: Notes sur la sémiotique de la réception, p.9.
 [20]- أدونيس: شعرية القراءة. ص 17.
 [21]- R. Barthes: S/Z. p.20
 [22]- P. Ricoeur / Entre herméneutique et sémiotique, p.6.
 [23]- A. Roth : Le rôle du lecteur, p.98.
 [24]- إرود إيش: التلقي الأدبي. ت/محمد برادة. ص 14.
 [25]- أحمد المدني: أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر. ص 16.
 [26]- المرجع نفسه ص 61.
 [27]- J.P. de Beaumarchais: Dictionnaire des littératures, p.1263.
 [28]- P. Malandin: Compte rendu de lecture, p.73.
 [29]- Op. Cit. p.73.
 [30]- U.ECO: Les limites de l'interprétation, p.39.
 [31]- أحمد المدني: أسئلة الإبداع. ص 16.
 [32]- B. Abraham: A propos de la relecture, p.85.
 [33]- A. Roth: Le rôle du lecteur, p.102.
 [34]- عبد العزيز طليمات: الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع. ص 61.
 [35]- M. Charles: Rhétorique de la lecture, p.9.
 [36]- عبد الفتاح كليطو: الأدب والغرابية. ص 29.
 [37]- B. Abraham: A propos de la relecture, p.85.

- [38]- أدونيس، شعرية القراءة. ص16.
- [39]- P. Malandin: Compte rendu de lecture, p.77.
- [40]- Ibid.
- [41]- أدونيس: شعرية القراءة. ص16.

المراجع

أ - العربية

- أدونيس (علي أحمد سعيد): شعرية القراءة - الآداب عدد 7 - 9 / 1985 / بيروت.
- إيش إرود: التلقي الأدبي. ت / محمد برادة. دراسات سال عدد 6 / 1992 / فاس.
- ستاروبنسكي (جان)، نحو جمالية للتلقي. ت/محمد العمري. دراسات سال / عدد 6 / 1992 / فاس.
- طليينات (عبد العزيز): الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولف غانغ إيزر - دراسات سال / عدد 6 / 1992 / فاس.
- كليطو (عبد الفتاح): الأدب والغرابية - دار الطليعة 1982 - بيروت.
- المديني (أحمد): أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر - دار الطليعة. 1985 - بيروت.
- عصفور (جابر): مفهوم الشعر - دراسة في التراث النقدي - ط3. دار التنوير 1983 - بيروت.

ب - الفرنسية

- B. Abraham: "A propos de la relecture" in SEMEN, 1, 1983, Besançon.
- R. Barthes: S/Z, Seuil / coll. Points, 1976, Paris.
- de Beaumarchais et al: Dictionnaire des littératures de Langue Française, TII, Bordas, 1984, Paris.
- M. Charles: Rhétorique de la lecture, Seuil, 1977, Paris
- U. ECO: Notes sur la sémiotique de la réception. Actes sémitiques, IX, 81, 1987, Paris.
- U.ECO: Les limites de l'interprétation. Bernard Grasset, 1992, Paris.
- W. Iser: L'acte de lecture: Théorie de l'effet esthétique, P. Mardaga, 1985, Bruxelles.
- J. Kristiva: Sémiotiké: Recherches pour une sémanalyse, (Extrait) Seuil - Coll. Point, 1978, Paris.
- P. Malandain: "Compte rendu de lecture" in SEMEN 1, 1983, Besançon.
- M. Marghescou: le concept de littéralité - Mouton, 1974, Paris.
- J. Ricardou: "Pour une lecture rétrospective", Revue des sciences humaines N°177, 1980, Lille.
- P. Ricoeur: Entre herméneutique et sémiotique - Nouveaux actes sémiotiques, 7, 1990 / Limoges.
- Rothe: "Le rôle du lecteur dans la critique allemande contemporaine", Littérature N°32 / 1978, Paris.
- F. Rutter: "Sur les notions de texte et de lecture dans une théorie de la réception," Revue des sciences humaines, N°177, 1980, Lille.
- Viala et M.P. Schmitt: Faire - Lire, Didier, 1986, Paris. □

